المخطوط الجزائري الحقبة الاستعمارية ١٨٣٠ - ١٩٦٢ . أنموذجاً

د. رابح محمد
جامعة تلمسان- الجزائر

الكلمات المفتاحية : المخطوط .النسخ .الاستعمار الفرنسي . الخزائن . الفترة المعاصرة

الملخص :

تُعد الجزائر من طليعة البلدان التي أولت التراث المخطوط اهتماما بالغا، فكانت أول دولة إسلامية قامت في ربوع هذه البلاد، وهي الدولة الرستمية، التي أعطت أهمية التراث للمخطوط، فخص عبد الرحمن بن رستم المساعدة المالية التي وردت له من المشرق، لشراء الكتب ونسخها، فكانت مكتبة المعصومة من أهم مكتبات المغرب الأوسط خلال عهد الدولة الحديثة، كما تواجدت مخطوطات متعلقة بالفترة الاستعمارية الفرنسية ما بين ١٨٣٠ إلى ١٩٦٢ولها أهمية كبيرة باعتبارها أحد الحلقات التاريخية التي تدون أوضاع المجتمع الجزائري في جميع المجالات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية وإذا أردنا أن نعطي فكرة عن رصيد التراث العربي المخطوط بالجزائر لابد علينا الحديث ولو باختصار عن هده الخزائن وبالخصوص في الفترة المعاصرة. .

المقدمة :

بالرغم من قلة الأخبار والمعلومات عن خزانات الكتب، في مصادر التاريخ والتراث بالمغرب فإنه كان للكتاب مكانته في الجزائر ، إن المسافة الجغرافية والثقافية هى التي تفصل بين الجزائر وبلاد المشرق، الذي يعتبر منبع حضارة الكنانة حث الجزائريين على إعطاء الكتاب وكل شيء مكتوب عناية ومكانة شبه مقدسة تتجلى من خلال حركة الشيوخ الذين يتحدثون لجمع ورقة مطبوعة او مخطوطة بقي يحترمهم في طريقهم وحفضها في حفرة أو ثقبة حائطية حتى لا تدوسها أقدام المارة.

إن اهتمام الجزائريين بالكتاب قديم، وتقديسهم للورقة المكتوبة عريق، فلا غرابة إذا في كون الجزائر تحتضن خزانات تضم أهم الأرصدة المحفوظة في مختلف بلدان المغرب الإسلامي بأكمله ، كما تتوفر علة مجموعة من الخزائن المتعلقة بالفترة الاستعمارية التى عمرت قرابة قرن وربع من الزمن ومن هنا نطرح الإشكالية العامة، ماهي أهم خزانات المخطوطات الجزائرية ؟ وماهي المادة الأرشيفية التى تحتوي عليها ؟وفيما تكمن العوامل المؤثرة عليها ؟ من خلال هده الورقة البحثية سوف نجيب عن هده التساؤلات.

١ . مراكز المخطوطات الجزائرية : [١]

تزخر الجزائر بوجود ثروة كبيرة على ربوعها تحتوي على كنوز عظيمة في شتى علوم المعرفة الإنسانية، وهي متواجدة في نوعين من المراكز، الأولى مراكز رسمية خاصة بالدولة وأخرى مراكز مرجعية أو خاصة (أهلية)

١ . ١ . المراكز الرسمية: نذكر منها [٢]

أ . مخطوطات جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية بقسنطينة: عدد المخطوطات حوالي 150 مخطوط، قسم من هذه المخطوطات كان في مكتبات خاصة ولقد أنشأت الجامعة قسم مدينة لمكتبتها، وهي موزعة بحسب مصادر جمعها على النحو التالي:

. مكتبة الشيخ خير الدين كاتب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وفيها 61 مخطوط.

- مكتبة الشيخ صالح بن العابد تحوي 44 مخطوط.
- مكتبة الشيخ ابن الموهوب محمد المولود فيها 60 مخطوط.
- مكتبة الشيخ شعيب ابن الموهوب محمد الهادي : 63 مخطوط.

ويوجد ضمن المخطوطات المذكورة عدد من المجامع ، وهذه المخطوطات مفهرسة لكنها في حاجة إلى إعادة النظر لترتيب المخطوطات بحسب موضوعاتها[٣].

ب . مخطوطات المكتبة المركزية في جامعة قسنطينة: هي قليلة عددها 84 مخطوط بعضها مجامع، قسم من هذه المخطوطات لعلماء جزائريين، أعد لهذه المخطوطات فهرس لكنه لا يلبي حاجة الباحثين وهو أيضاً يحتاج إلى إضافات وترتيب جديد.

ج . مخطوطات مكتبة جمعية الأبحاث والدراسات التاريخية بأدرار: يوجد بها عدد كبير من المخطوطات.

د . مخطوطات مكتبة جامعة الجزائر: كانت عامرة بالمخطوطات لكن الاحتلال الفرنسي لم يبق منها شيء وما بقي منها أحرق عقب الاستقلال[٤].

هـ . مخطوطات المكتبة الوطنية في الجزائر العاصمة: فيها أكثر من ثلاثة آلاف مخطوط، عدا تلك التي أحرقت أيام الاحتلال الفرنسي، صنع لها المستشرق الفرنسي "كانيان" فهرسا ونشره في باريس سنة 1890م، وقد حاولت مجموعة من الباحثين إعداد فهارس فنية للمكتبة باللغة العربية تراعي فيها أصول فهرسة المخطوطات لتسهيل مهمة الباحثين منها محاولة الأستاذ "بن رابجيونار" و"جلول بدوي" لكن المشروع لم يكتمل وكذلك محاولة الأستاذين عبد الغني أحمد بيوض ومحمود بوعياد، حيث أعد فهارس عدد من المخطوطات ، ويعتبر المكتبة الوطنية هي المؤسسة المهنية الأولى بالمخطوطات وهي أول مؤسسة أقحمت عن كتب التاريخ والحضارة، فقد عملت على جمع المخطوطات واستبيانها، حيث عدل منها هذا الرصيد التراثي أهم خزانة في القطر الجزائري[٥].

و . مخطوطات مكتبة معينة الشؤون الدينية: بباتنة (الأوراس): توجد هذه المكتبة بوسط مدينة باتنة عاصمة الأوراس، في شارع قرين بلقاسم، أسست هذه المكتبة سنة 1977 وتحتوي اليوم حوالي 07 مخطوط يوجد ضمنها عشرة مجاميع وبعض المخطوطات التي توجد بها ، مازالت في حالة جيدة وبعضها الآخر في حالة متوسطة.

. مكتبة ثانوية بن رجب: بمدينة تلمسان وهي تحتوي على 100 مخطوط.

. مكتبة التراث بوزارة الشؤون الدينية بالعاصمة، وتحوي 700 مخطوط.

. مكتبة المركز الثقافي الإسلامي بقسنطينة، وتحوي 17مخطوط[٦].

وأخيرا ننوه إلى أن المراكز الرسمية للمخطوطات الجزائرية كثيرة لكن يصعب التعريف بها ، خاصة تلك المراكز العلمية والثقافية ودور الثقافة المنتشرة في ربوع الجزائر.

٢ . ٢ . المراكز الخاصة (الأهلية):

المراكز الخاصة أو كما تسمى بالمرجعية هي كثيرة بالقياس مع المراكز الرسمية، وهي تنتشر في كامل التراب الوطني ولا سيما في ولايات الجنوب، وفيما يلي أهم المراكز التي استقطب الوقوف عليها من خلال الدراسات التي كتبت حولها:

أ . مخطوطات زاوية الشيخ الحين ببليدة سيدي خليفة بميلة: كانت الزاوية تحتوي على كنوز المخطوطات، تزيد عن ستة آلاف مخطوط، عدا تلك التي يملكها أفراد لكن أغلبها ضاع، ففرنسا أحرقت نسبة كبيرة منها، كذلك روادها من الجزائر والمغرب الأقصى وتونس وأعدادا منها، على سبيل السلفة لكنهم لم يرجعوها، كما تأثرت بالعوامل الطبيعية، وفيها اليوم حوالي 100 مخطوط من نوادر المخطوطات مآلها الإحراق،لأن الرطوبة فيها، وأوراقها متلاصقة.

وفي إطار مشروع البحث اللغوي وإحياء التراث الذي تبنته جامعة قسطينة تبين أن في المكتبة مخطوطات نفيسة تعد من ذخائر المخطوطات التراثية ترجع إلى القرون الأولى من الهجرة النبوية، كتبت بخط مؤلفيها[٧].

ب . مخطوطات مكتبات أدرار (توات-قرارة): تعد أدرار من المناطق الغنية بوفرة المخطوطات، ولقد أعد الأستاذ مقدم مبروك بحثا عن هذه المخطوطات وسماه: المخطوطات داخل الخزانات الشعبية خلال القرن 19، وبداية القرن العشرين بتوات وقرارة، وركز فيه على أهم المراكز التي تحتفظ بالمخطوطات ، وفيما يلي أهم المراكز التي ذكرها:[٨].

- مركز توات: وفيه اثنتا عشر مكتبة وأشهرها: مكتبة وحلان، مكتبة سيدي حيدة، مكتبة كومام، مكتبة بني ثامر.
- مركز تنجرين: ومن خزائنه: خزانة المطارقة، خزانة أولاد عيسى، خزانة اقسطن.

ج . مخطوطات مكتبة النسخ التاصي صحراوي الميدوسي باتنة: عدد مخطوطاتها عشرين مخطوطاً لقد كانت المكتبة عامرة بالنفائس المخطوطات في ايام الاحتلال الفرنسي للجزائر، لكن المحتل عمد غلى إحراق جزء كبير منها ،وقسم آخر دفن تحت التراب خوفا من ضياعه، لكن طول الاحتلال الفرنسي للبلاد أدى إلى إتلاف الطبيعة فيها، فأتلفت ولم يعثر على أثر لها رغم البحث الطويل عنها، والمخطوطات التي سلمت من أيدي المحتل في حالة جيدة.

- وقد أعد فهرسا لهذه المخطوطات ونشر في مجلة المورد العراقية، المجلد الثامن عشر والعدد الثالث عام 1989.

مخطوطات مكتبة الشيخ المهدي البوعبدلي في الغرب الجزائري: عمل الشيخ المهدي أبو عبدلي طوال حياته على جمع ما تيسر له من المخطوطات النمفيسة، وأن يرصد أماكن يوجد بها قديما

وحديثا، فكون مكتبة عامرة بالمخطوطات وهذه المكتبة من أغنى المكتبات الخاصة، لم تفهرس مخطوطاتها بعد[٩].

. مخطوطات مكتبة الشيخ نعيم النعيمي بقسنطينة.

. مخطوطات مكتبة الشيخ المولود بوزيد بسريانة ولاية باتنة.

. مخطوطات الزاوية القادسية ببشار.

. مخطوطات مكتبة الهامل ببوسعادة.

. مخطوطات مكتبة الشيخ شعيب بتلمسان.

. مخطوطات مكتبة زاوية سيدى بن عمر بدائرة فلاوسن بتلمسان

. مخطوطات مكتبة الفكون بقسنطينة[١٠].

. مخطوطات مكتبة الواوية المختارية باولاد جلال بسكرة.

. مخطوطات زاوية خنقة سيدي ناجي بولاية بسكرة.

وإلى جانب ما تقدم ذكره من مراكز المخطوطات الخاصة المتواجدة في مشرق البلاد وغربها شمالها وجنوبها، توجد مكتبات وزوايا كثيرة بها خزائن من المخطوطات، لم تزل مجهولة إلى غاية الآن، ولم يتم الوصول إليها ومعرفة محتوياتها.

من خلال هذا العرض البسيط لأهم مراكز المخطوطات الجزائرية يمكن القول بأن بلادنا تزخر بثروة هائلة من المخطوطات لكن في نفس الوقت نجد هناك مخطوطات كثيرة توجد في المراكز العلمية والمكتبات والمتاحف في كل من فرنسا، اسبانيا، بريطانيا ،هولندا، وألمانيا، قد نقلت هذه المخطوطات أثناء فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر، وفي مكتبات تركيا مجموعة من المخطوطات الجزائرية أعد لها الدكتور محمد بن عبد الكريم فهرسة ونشره عام 1972 ببيروت تحت عنوان "مخطوطات جزائرية في مكتبات اسطنبول"

٣ . العوامل المؤثرة في المخطوطات:

على الرغم من وفرة المخطوطات التي تملكها الجزائر إلا أنها عانت من العديد من المؤثرات والعوامل التي أدت إلى ضياعها، وإتلافها، ويمكن إجمال هذه العوامل في:

٣ . ١ . عامل الاستعمار:

يعد عامل الاستعمار أقسى تجربة مرت على المخطوطات والتي ساهمت بشكل واضح في ضياع التراث الجزائري، حيث نجد أن الاحتلال الفرنسي منذ دخوله أرض الجزائر عام 1830م، قد عمل جاهدا على شن حملة كبيرة من أجل تخريب ذاكرة الأمة ،إلا انه يدرك تمام الإدراك بان شعبا بلا تاريخ شعبا لا وجود له، لذلك لم يوفر أي جهد لتحطيم أسوار الماضي، ومحو معالم شخصيتنا من خلال اللغة الفرنسية، محل اللغة العربية الإسلامية، طيلة فترة الاحتلال، للقضاء على كل المراكز الدينية والثقافية الموجودة في البلاد، عن تحويل المساجد إلى كنائس، وهي جملة التبشير بالدين المسيحي ،ولا يزال أثره يسري في المجتمع الجزائري إلى اليوم، فالمحتل قد قام بتحريف آلاف المخطوطات والوثائق كما سرب آلا فأخرى إلى البلد الأم فرنسا، من أجل الاستمتاع بمحتوياتها، كما أحرق الآلاف من المخطوطات التي كانت تخص تاريخ الأمة العربية ومبادئها ومقوماتها من مخطوطات الفقه والحديث، وغيرها، كل هذه العمليات التي اقترفها الاحتلال الفرنسي في حق الشعب الجزائري كانت تهدف إلى إلحاقه بفرنسا لغة ودينا ،وسلوكا، وبغرض قطع الصلة بين الفرد الجزائري وتراثه الخالد الذي يعكس التصاقه بالإسلام والعروبة[١١].

٣ . ٢ . عوامل الطبيعة:

أما تأثيرات الطبيعة فكان لها الدور الهام في إتلاف الكثير من المخطوطات، فإن بقاء المخطوطات مدة زمنية طويلة دون حفظ وعناية أمر يعجل باندثارها، وتسلمه لعوامل الزمن، فتاتي الرطوبة والحشرات والجراثيم عليه، فيتعرض للضرر والتلف، فأغلب المخطوطات التي سلمت من أيدي الاستعمار الفرنسي كانت محفوظة تحت التراب ،والكثير منها مازال مدفونا لم يعرف سبيله لأن الذين دفنوه ماتوا في عهد الاحتلال[١٢].

٣ . ٣ . العامل البشري:

يعتبر الإنسان شريكا في بقاء المخطوطات في الجزائر على الصورة السلبية المذكورة، لأن مالكيها يعتقدون أنها ملك لهم، كأي عقار موروث لا يحق لأحد أن يقترب منه، فهم يجهلون قيمتها الفكرية والحضارية، ولذلك فالكثير ممن يحتفظون بالمخطوطات ويصرون على الاطلاع عليها ويفضلون الإبقاء عليها كما هي، كأنهم يتبركون بها لأنهم يعتقدون أنها تحمل ربح الأولين، ولعل أسوء ما يتعرض له تراثنا المخطوط في السنين الأخيرة ما يقوم به بعض الغفلة والجشعين، حيث يهربونها ويبيعونها بأبخس الأثمان، وما أدرى هؤلاء أنه يبيعون تراث الأمة، وهو شيء لا يباع مهما ارتفعت قيمته[١٣].

كذلك يتضح تأثير العامل البشري في ضياع المخطوطات، حيث نجد مجموعة من العلماء الجزائريين قاموا بنقل المخطوطات معهم حينما هاجروا في عهد الاستعمار إلى تونس والمغرب الأقصى.

خاتمة :

يعتبر المخطوط أحد الركائز الأساسية في عملية بناء تاريخ الأمم والشعوب ،باعتباره حلقة الوصل لمعرفة الحقائق التاريخية في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية ،فتاريخ الجزائر المعاصر خلال الحقبة الاستعمارية مر بمجموعة من الأحداث دونت عن طريق المخطوط الذي سهل عملية الدراسة الأكاديمية ، لذلك يجب علينا المحافظة عليه من الضياع والاندثار لأن مكانه الحقيقي هو المتحف بتوفير جميع الوسائل المادية والبشرية باعتباره تراث للأجيال القادمة لفهم التاريخ الصحيح المبني على الوثيقة المخطوط والوصول إلى الحقيقة العلمية الموضوعية.

الهوامش:

[١] حيرنار محمد، المخطوطات في ليبيا دراسة عريقة في المكتبات وعلم المكتبات ، كتاب دوري ع٢ ،١٩٩٧ ، ص 21.

[٢] حساني مختار، القرآن الجزائري المخطوط في الجزائر والخارج، ج4، الجزائر، منشورات المنار،2009، ص ١٥.

[٣] عوفي عبد الكريم، القرآن الجزائري المخطوط بين الامس واليوم، مجلة الثقافة والتراث، دبي، مركز جامعة الماجد، ع مج ،10-21، 1998، ص 103.

[٤] حساني مختار، المرجع السابق، ص 81.

[٥] حساني مختار نفسه، ص 91.

[٦] مصباح غنيبة،المخطوط العربي في ظل التكنولوجيا الحديثة للإعلام والاتصال، جامعة قسنطينة ،قسم المكتبات والمعلومات ٢٠١٠،ص٢٣ .

[٧] عوفي عبد الكريم، المرجع السابق، ص 103.

[٨] مختار حساني المرجع السابق، ص 12.

[٩] عوفي عبد الكريم ، المرجع السابق، ص 104.

[١٠] مصباحي عقبة، المرجع السابق، ص 27

[١١] شريط عبد الله، مملكة اللغة والمجتمع، مجلة الأصالة السنة الرابعة، العدد 17-18، الجزائر، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، مطبعة البحث، 1973، ص 130

[١٢] حساني مختار، المرجع السابق، ص 7.

[١٣] مصباحي عقبة، المرجع السابق، ص 26.

The Algerian manuscript colonial era 1830 -1962 -Model

Abstract:

Algeria is one of the forefront of the countries that paid great attention to the manuscript heritage, as i twas the first Islamic country to rise in this country، and it is the Rustamia, which gave the importance of heritage to the manuscript، Abdel Rahman Ibn Rustum singled out the financial assiastance that wasrecieved from him from the east, to buy books and copies and it was the libraryof the infallible one of the most important libraries of the Middle Eastduring the era of the modern stat, there were also manuscripts releted to the French colonial period between 1830 and 1962 and they have great signilicanceas one of the historical rings that record the conditions of Algerian society in allsocial, cultural, economic and solitical fields. And if we want to give an ideaabout the balance of the Arab heritage in manuscript in Algeria, we must talk، even briefly, about these treasures, especially in the contemporary perod.